

فَقه مَنْزِل طَلبِ الْعِلم عِنْدَ الإمَامِ الشّافِعِيّ.

قراءةٌ فِي أنسَابِ المَعانِي

إعداد

أ . د/ مَحمُود تَوفِيق مُحمَّد سَعد

أستاذ غير متفرغ كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة نصر

١٤٤٢ هـ = ٢٠٢٠م




بسم الله الرحمن الرحيم

فَقه مَنْزِلِ طَلَبِ الْعِلمِ عِندَ الإمَامِ الشّافِعِيّ. قراءةٌ فِي أَنسَابِ المَعانِي

مَحمُود تَوفِيق مُحمَّد سَعد

قسم البلاغة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بمدينة نصر، جامعة الأزهر ، مصر .

البريد الاليكتروني:

mostafaaly70@gmail.com

ملخص البحث

المَأَمُّ فِي هَذا المَقالِ تَثوِيرُ ثلاثَةِ أُمُورٍ رَئِيسَةٍ:

- مَنْهَجِ بِنْيَةِ الحِوَار التَّساؤلِيّ المُتَصَاعِدَةِ الْمُنْبِئَةِ عَنْ أَنسَابِ المَعانِي فِي تِلكَ البِنْيِةِ.
- لَقَانِيةِ المُحَاوِرِ المُتَسائِلِ وحكْمَتِهِ في اصْطِفَاءِ مَا يَتساءَلُ عَنه الْمتواءمِ مَعَ شأنِ مَن يُسَائِلُهُ.
- منهجِ الإجابةِ تَفكيرًا وتَعبِيرًا عَن هَذا التَّساؤلِ بِمَا يَكشِفُ عَن الرُّؤيَةِ المُحِيطَةِ المُتَغَوِّرَةِ لَدَى الإِمامِ الشَّافِعِيِّ لِمَنْزِلَةِ طَلَبِ العِلْمِ النَّفِيعِ فِي تَحقِيقِ أدَمِيَّةِ الإنْسَانِ.

الكلمات المفتاحية: فَقه مَنْزِلِ طَلَبِ الْعِلمِ -الإمَامِ الشّافِعِيّ -قراءةٌ فِي أَنسَابِ المَعانِي

Jurisprudence of the status of seeking knowledge at Imam shafei Reading in the genealogy of meaning

Mahmoud Tawfiq Muhammad saad
Rhetoric Department, College of Islamic and Arabic Studies for Girls, Nasr City, Al-Azhar University, Egypt.
College email:mostafaaly70@gmail.com

Abstract :

Helpefully this topic will revelutionize three main things

Currriculum of escalating inquisitive dialouge structure the prophet for the genealogies of meanings in that structure

The literality of the questioner interlocutor and his wisdom in selecting what he wonders about ,who is compatible with the affairs of the one whoquestions him who questions him

The method of the answer is areflection and an expression of the question,which reveals the changed surrounding vision for Imam Shafei to the status of seeking beneficial knowledge in achieving human humanity

Key words : Jurisprudence of the status of seeking knowledge - Imam shafei- Reading in the genealogy of meaning

مقدمة

لَيْسَ ثَمَّ طالِبُ عِلْمٍ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ وِبسُنَّةِ رَسُولِهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَسَلَّمَ - يَجْهَلُ مَكانَةَ الإمَامِ مُحَمَّد بنِ إِدْرِيس الشَّافِعِيِّ المَطْلِبِيِّ (ت:٢٠٤ هـ) ، والقائلَةِ عَنه سيّدتُنا نَفيسة رضي الله عنها حَفِيدةُ سيدنا الحسن بن عليّ رضي الله عنهما (ت٢٠٨ هـ) حِينَ بَلَغتها وَفاتُهُ : "رَحِمَ اللهُ الشّافِعِيّ ، كَانَ يُحْسِنُ الْوُضُوءَ".

قَالَتهَا فِي حَقّ واضِعِ عِلْمِ أُصُولِ الفَهمِ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ وعَنْ رَسُولِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه ،وسَلّم - مكتفيةً بها، فَهِي جِماعُ فَضلِهِ في رؤية سَيّدتِنا نفِيسة رضي الله عنها النَّافِذَةِ الْمُحِيطَةِ، فكانتْ بالغَةَ الإيجازِ فِي تَكريسِ فِيوضٍ مِنْ المناقبِ الْعَلِيَةِ للإِمامِ الشّافِعِيّ رضي الله عنه .

كَلِمَةٌ نَفِسيّةٌ عَلِيّةٌ دَالَّةٌ عَلَى عُلُوِّ قَدْرِ الإمَامِ الشَّافعيّ فِي عَلاقَتِهِ بِرَبِّهِ عَزَّ وَعَلا، وَفِي تَهْيئَةِ نَفْسِهِ وَعَقلِهِ وفُؤادِهِ وَرُوحِهِ لِيَتَلَقّى عَنْ ربّه عَزّ وَعَلا وَهُوَ يَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ تعالَى قَانِتًا مُتَزَلِفًا، فَالّذِي يُحْسِنُ المُقَدِّمَاتِ تُحْسِنُ إِلَيْهِ النّهَايَاتُ.

هَلْ لَكَ أَنْ تَتَبَصَّرَ فِي جَمِيعِ أَمْرِكَ، وَلَا سِيَّمَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ لاسْتِطْعَامِهِ كَيْفَ تَبْدَأُ ؛ لِتَعْلَمَ كَيْفَ تَنْتَهِي .

لَوْ شِئتَ أَنْ تكتَفِيَ بِعبارةِ سيّدتنا " نفِيسة" رضي الله عنها فِي العِرفانِ بِما يجبُ أنْ تقُومَ بِهِ تَهيئةً لفؤادكَ فِي طلبِ العلمِ أو بعبارةٍ أَجلّ: فِي وراثة النّبيّ صَلى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبِه وسَلَّم في رِسَالتِهِ الْمتَمثّلةِ فِي إخراجِ النّاسِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ – لَوْ شِئتَ لكَانَ لَكَ مَا شِئتَ.

مَا قَالَ الأَعْيَانُ مِنْ أَهْلِ الْعِلمِ فِي شَأنِ الإِمَامِ الشَّافِعِيّ عَالِمًا مُعَلِّمًا النَّاسَ الخَيْرَ بِلِسَانِ حَالِهِ قَبْلَ لِسَانِ مَقَالِهِ عَلَى فَصَاحَتِهِ ﵁ وَبَلاغَتِهِ وَبَراعَتِهِ أَمْرٌ جِدُّ كَثِيرٍ، وَلا أَحْسِبُ أَنَّكَ بِحاجَةٍ إِلَى أَنْ أَنقِلَ إِلَيْكَ هُنَا شَيْئًا مِنْهُ(1).

ما أَنَا بِحاجَةٍ إِلَى أَنْ أَسْتَحْضِرُه فِي فُؤادِي وَفِي فُؤادِكِ اسْتِحْضارَ اسْتِطعَام ، لِيَكُونَ لِي وَلَكَ مِنْهُ مَا أَنَا وَأَنْتَ إِلَيْهِ مُفْتَقِرَانِ إِلَيْهِ غِذَاءً وَشِفَاءً إِنّمَا هُوَ مُحاوَرَةٌ جَرَتْ بَيْنَ الشّافعِيّ وَمَنْ سَأَلَهُ عَنْ شَأنِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْم لَعَلَّنَا نَحْمِلُ مِنْ هَذِهِ المُحَاوَرَةِ مَا نَحْنُ مُفتَقِرُونَ إِلَيْهِ ، فعزائمُ كثيرٍ منّا فِي طلبِ العلمِ أحاطَ بِها من المفتّراتِ المثبطاتِ ما يجبُ مقاومتُه والتّطهُّر مِن آثَارِه ،وَفِي فقهِ مثلِ هذِهِ المُحاورةِ ما يُرجَّى أن يكونَ له أثرٌ فَعيلٌ فِي تثويرِ العزائمِ إلى الارتقاءِ إلى مقامِ عَليّ مِن مقاماتِ القُربِ الأقدسِ .

ꕥꕥꕥꕥ

(1) ينظر: سير أعلام النبلاء تأليف الشمس الذهبي، تحقيق جمع بأشراف شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط(3) عام 1405هـ، ج: 10 / 5 -99، وكتاب آداب الشّافِعيّ ومناقِبه ، لابن أبي حاتم الرازيّ (ت: 328 هـ) تحقيق العلامة عبد الغني عبد الخالقِ، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الولى عام:1424هـ، وكتاب مناقب الشّافِعي تأليف أبي بكر البيهقِي (ت:458 هـ) تحقيق : السيد أحمد صَقر، نشر: دار التراث، القاهرة، طبعة أولى عام 1390هـ، وكتاب تاريخ بغداد، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى:463هـ)المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي– بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ -ج:2/ 392 -414، وكتاب توالِي التأسيسِ بمعالِي ابْن إدريس، تأليف ابن حجر العسْقلانيّ (ت:852هـ) تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضِي، نشر دار الكتبِ العلميّة– بيروت، الطبعة الأولى عام1406هـ.

(نَصُّ الْمُحاورة) :

قَالَ ابْنُ أَبِي حاتمٍ: سَمِعْتُ الْمُزَنِيّ يَقُولُ :

قِيلَ لِلشَّافِعِيّ : "كَيْفَ شَهوَتُكَ لِلْعِلْمِ؟"

قَالَ: "أَسْمَعُ بِالحَرْفِ -أيْ: بِالْكَلِمَةِ- مِمَّا لَمْ أَسْمَعهُ ، فَتَودُّ أعْضَائي أنّ لَها أسْمَاعًا تَتنعّمُ بِمَا تَنعّمَتْ بِه الأُذُنانِ .

فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ حِرْصُكَ عَلَيْهِ؟

قال: حِرْصُ الْجَموعِ المَنوعِ فِي بُلُوغِ لَذَّتِهِ لِلْمالِ.

فَقِيلَ له: فَكيفَ بطَلَبِكَ لَهُ؟

قال: طلَبُ المَرْأَةِ المُضِلَّةِ لِوَلَدِهَا لَيْسَ لَهَا غَيْرُهُ"[1]

"المُحاوَرَةُ" ضَرْبٌ مِنْ فُنُونِ التَّداولِ البَيانِيّ الّذِي يَكُونُ فِيهِ لِمُسْتَفتِحِهَا الإمْساكُ بِزِمَامِ حَرَكَةِ الإِبَانَةِ ، عَلَى ضَوْءِ تِلْكَ الحَرَكَةِ يُكُونُ بَيَانُ المُجِيبِ ، وَهِي تُسَمَّى "مُحاوَرَةً" "مُفاعَلَةً" مِن " الحَوْرِ" أيْ الرُّجُوعُ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾ [سورة الانشقاق:١٤].المُتَحَاوِرَانِ يَحُورُ كُلٌّ إِلَى صَاحِبِهِ يَرْقُبُ بَيَانَهُ لِيُجَاوِبَ بيانُهُ بَيَانَهُ ، وَفِي هَذا مِن التَّواصُلِ الضَّابِطِ حَرَكَةَ التَّفْكِيرِ أَوّلاً وَالتَّعْبِيرِ تالِيًا ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ مُدَارَسَةُ البَيانِ الْحِوَاريّ ذاتَ مُنْهاجٍ خاصٍّ وأدواتٍ مُتَنَوِّعةٍ، والبَيانُ القُرآنِيّ والنَّبَوِيّ يَحْضُرُ فِيهما الْبَيَانُ الْحِوارِيُّ حُضُورًا ظَاهِرًا فاعلاً.

وَهَذِهِ "المُحاوَرَةُ" أُقِيمَتْ مِنْ ثَلاثَةِ "أَسْئِلَةٍ" أَجَابَ عَنْهَا "الشَّافِعِيُّ" وَهِيَ أسْئِلَةٌ مَنْهَجِيّةٌ قَائِمَةٌ عَلَى حِكْمَةٍ نَافِذَةٍ مَنْ طَارِحِ تِلْكَ

---

(١) توالي التأسيس لابن حجر العسْقلاني ص:١٠٦.

الأسئلة فِي سَمْعِ "الشّافِعِيّ"، وثَقَافَةُ السُّؤَالِ مِمَّا يَفْتَقِرُ إِلَيْهَا كُلُّ طَالِبِ عِلْمٍ، فَإِنَّ "السّؤالَ" مِفْتَاحُ الْمَعْرِفَةِ، فَمَنْ أَحْسَنَ سُؤَالَ العَالِمِ، فَإِنَّهُ يُحْسِنُ فَتْحَ خَزَائِنِ عِلْمِهِ، ذَلِكَ أَنَّ عِلْمَ العَالِمِ مَكْنُوزَةٌ دَقَائِقُهُ وَلَطَائِفُهُ فِي فُؤَادِهِ يُثَوِّرُهَا السُّؤَالُ، فَإِذَا مَنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ عَلَى عَالِمٍ بِطَالِبِ عِلْمٍ يُحْسِن طَرْحَ السُّؤَالِ مَجَالاً وَصِيغَةً ، وَأَدَاءً وَسِيَاقًا ، فإنَّهُ مِن النِّعْمَةِ المُسْتَوجِبَةِ جَزِيلَ الشُّكْرِ وَجَمِيلَهُ ، وَقَدْ كَانَ العَارِفُ بِالطَّرِيقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى "أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَارِثُ بنُ أَسَدٍ المُحَاسِبِيُّ (ت:٢٤٣هـ) يَصْطَحِبُ تَلامِيذَهُ سَيْرًا فِي الخَلاءِ لِيَطرَحُوا عَلَيْهِ الأَسْئِلَةَ كَمَا تَفِدُ فِي أَفْئِدَتِهِمْ ، فيُجِيبُ عَنْهَا، ثُم يَرقِنها فِي رسالةٍ ، فَهَذِهِ "الأَسْئِلَةُ" رِزْقٌ مِن اللهِ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ يَسُوقُه اللهُ تَعَالَى عَلَى أَلْسِنَةِ تَلامِيذِهِ، مِمَّا يَجْعَلُهُ فَضْلاً مِن اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ يَجِبُ عَلَيْهِ شُكْرُ اللهِ تعالَى عَلَيْهَا شُكْرًا جَمِيلاً فَعِيلاً، وَكَذَلِك شَأْنُ العَالِمِ الرَّبَّانِيّ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ بِلَحْظِهِ مِن قَبْلِ لَفْظِهِ.

- ثَلاثةُ أَسْئِلَةٍ بُنِيَتْ عَليْهَا "المُحَاوَرَةُ:
- كَيْفَ شَهوَتُكَ لِلْعِلْمِ؟
- كَيْفَ حِرْصُكَ عَليْهِ؟
- كيفَ بطَلَبِكَ لَهُ؟

كُلُّ سُؤَالٍ مِنْهَا يُثَوِّرُ كُنُوزًا مِن الْعِلْمِ والْحِكْمَةِ والتَّجْرِبَةِ ، لَوْ أَحْسَنَ كُلُّ طالِبِ علْمِ الإِصْغَاء إِليْها، وحَاوَلَ السَّعْيَ إِلَى أن يُجِيبَ هُوَ عَلْيْهَا مِن وَاقِعِ حالِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْرَأَ جَوَابَ الإِمَامِ الشّافِعِيّ عَنْهَا ثُم تَخَيّلَ كَيْفَ يَكُونُ جَوَابُ الإِمَامِ الشَّافِعِيّ عَنْهَا مِنْ وَاقِعِ عِرْفَانِهِ بِشَأْنِ الشَّافِعِيِّ

مِمَّا قَرَأَ فِي كُتُبِ " الطَّبَقَاتِ وَالتَّرَاجِمِ " ، وَمَا قَرَأَهُ مِن آثَارِه العِلمِيّة ، ثُمّ يَسْتَمِعُ إِلَى جَوَابِ الإِمَام الشّافِعِيّ ، وَيَنْظُرِ مَا بَيْنَ الثَّلاثة الأَجْوِبَةِ :

بَيْنَ جَوَابِهِ هُوَ عَنْها ، ثُمَّ مَا تَخَيّلَ أَن يَكُونُ جَوَابَ الشَّافِعِيّ ،ثمّ ما أجابِ به الشّافعيّ .

ꕥꕥ

يَحسُنُ أَنْ يَسْتَهِلَّ نَظَرُكَ الْمُسْتَبْصِرُ فِي هذِه المُحَاوَرَةِ بِفِقْهِ نَسَقِ الأَسئِلَةِ الّتِي وُجِّهَتْ إِلَى الإِمَامِ الشّافِعِيّ، فَفِي ذَلِكَ مَا يُعِينُكَ عَلَى أَن يَمْتَلِكَ فُؤَادُك مَهَارَةَ التَّصَاعُدِ فِي مُمَارَسَةِ التَّفكِيرِ وَالْفِقْهِ لِمَا يُفَكَّرُ فِيهِ. فَفِقهُ بِناءِ الْمَعَانِي مُعِينٌ عَلَى حُسْنِ البَصَرِ بِها ذَلِكَ أَنَّ سِبَاق الْمَعنَى لَه أَثَرٌ فِي تَكوِينِهِ وَتَشْكِيلِهِ وأَثَرِه، وَهُوَ ذُو أَثَرٍ فِي لِحاقِهِ، وهكذا إِلَى ذروةِ الْمَعنَى.

أنتَ لَنْ تُحسِنَ فقهَ معانِي الهدَى فِي سُورةِ "آلِ عِمران" مثلاً إذا أنت لَمْ تَكنْ قد اعتكفتَ مسْتبصِرًا متدَبّرًا مَعانِي الْهُدَى المكنوزةِ فِي سورةِ "البقرة". لا تقرأنَّ نَصًّا مِن منْتصَفِه ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩ ﴾(البقرة:١٨٩).

ꕥꕥ

المَرْحَلَةُ المِفْتاح:

الأَسْئِلَةُ الّتِي وُجِّهَت إِلَى الشَّافِعِيِّ بَدَأَتْ بِسُؤَالٍ عَنْ كَيْفِيَّةِ شَهْوَتِهِ لِلْعِلْمِ، وَهَذَا يَهْدِيكَ إِلَى أَنّ طَلَبَ الْعِلْمِ بِغَيْرِ اشْتِهَاءِ لا يُمْكِنُ أَن يُؤْتِي مَا يُرْجَى أن يُؤْتِيه.

وآفة إخْفاقِ الجهود المَبْذُولَةِ عَلَى المُسْتَوَى الرَّسْميّ النّظامي أو المستوى الفَرْدِيّ الشَّخْصِيّ أنّ مَن تُسْتَثْمَرُ فِيهم تِلك الجهودِ لَمْ تُمَكّن فِيهُم فَضِيلَةِ "اشْتِهاءِ " العِلْمِ، وَلَمْ تُثَوَّرْ.

فِي اصْطِفَاءِ مفردة (شَهْوَة) فِي السُّؤَالِ إعْرَابٌ عَنْ قَدْرِ الطَّلَبِ عَنْ حَاجَةٍ غَرَزِيَّةٍ، (فِطْرِيّةٍ) وَكَأَنَّهُ يَهْدِينَا إِلَى أَنَّ المَرْءَ السَّويّ الَّذِي لَمْ تُلوِّثْ فِطْرَتَهُ الآدَمِيّةَ ارْتِكاسُ "الإنْسانِيّةِ" (الآنِسَةِ بِالنِّعْمَةِ وَالنَّاسِيَةِ المُنعِم سبحانَه وَبِحَمْدِهِ، وَالمُنْشَغِلَةِ بِهَا عَنْ شُكْرِهَا العَمَلِيّ).

ذَلِك المَرْءُ فِطْرَتُهُ الآدَمِيّةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى اسْتِفْحَالِ الحَاجَةِ إِلَى العِلْمِ؛ فَالْمَزِيَّةُ الرَّئِيسَةُ الفَارِقَةُ بَيْنَ بَنِي آدَمَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الكَائِنَاتِ هُوَ المُسْتَهَلُّ بِهِ إِكْرَامُ اللهِ تَعَالَى أَبَانَا آدَمَ عليه السلام بِهِ بَعْدَ خَلْقِهِ بِيَدَيْهِ: العِلْمُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البَقَرَةِ: ٣١)، وَالْمُسْتَهَلّ بِهِ النَّبَأُ عَن الآلاءِ الّتِي سَاقَهَا لِلثَّقَلَيْنِ فِي سُورَةِ (الرَّحْمَن) عَرُوسِ القُرْآنِ، كَمَا يُسَمِّيهَا بَعضُ أَهْلِ العِلْمِ.

اشْتِهاءُ العِلْم فِطرَةٌ آدَمِيَّةٌ صَفاءٌ، فَبِمِقدارِ تَحقّقِ كَمالِ هَذا الاشْتِهاءِ فِي المَرْءِ يَكُونُ تَحقُّقُهُ فِي كَمَالِ آدَمِيّتِهِ.

جِماعُ الشَّهَوَاتِ الأُخَرِ فِي بَنِي آدَمَ لَها نَصيبٌ مِن الحُضُورِ فِي غِيْرِهِم مِن الحَيَوانِ إلاَّ شَهْوَةَ العِلْمِ هِي الشّهْوَةُ الّتِي تَفَرَّدَ بِها بَنُو آدَمَ مِنْ بَيْنِ الكائِنات.

هَذا يَجْعَلُ لِلسُّؤَالِ عَنْ كَيْفِيَّتِها عِنْدَ الإمَامِ الشَّافِعِيِّ مَشْرُوعِيَّةَ الاسْتِهلالِ بِهَا.

والسُّؤَالُ لَمْ يَأتِ عَنِ الشَّهْوَةِ حُضُورًا وَغِيابًا ولا عَن ذَاتِها، ولا عَنْ

مِقدارِها .لَمْ يَقُلْ: أَتَشْتهي العِلم ؟ مِنْ أنّ هَذَا سُؤَالٌ لا يُقالُ لآدَمِيّ . أَنَّهُ عَدِيلُ أآدَمِيّ أنتْ ؟ هُما معًا : الشّهْوَةُ لِلْعِلْم، والآدَمِيّة سَواءٌ.

السُّؤَالُ أَتّى عَنِ الكَيْفِيَّةِ: " كَيْفَ شَهوَتُكَ لِلْعِلْمِ؟ "، وهذا إِقرارٌ ضِمْنِيٌّ بِحُضورِ هَذِهِ الشَّهْوَةِ فِيهِ.

صِيَاغَةُ السُّؤَالِ هُنَا ثُمَّ الاسْتِهْلالُ بِهِ مُتّسِمَانِ بِقَدرٍ وَفِيرٍ مِن الحِكْمَةِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ تَفَرُّسَ مَعالِمِها ثُمَّ مَلامِحِها كَما هُوَ شَأْنُ كُلِّ شَيْءٍ ذِي حِكْمَةٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ مَوْقَفٍ.

كَيْفَ شَهْوَتُكَ لِلْعِلْم ؟

كَذَلِكَ صِيغَ السُّؤَالُ الْحَكِيمُ .

جَاءَت الإِجابَةُ مِنْ جِنْسِ السُّؤالِ حِكْمَةً:

"أَسْمَعُ بِالحَرْفِ -أَيْ: بِالْكَلِمَةِ- مِمَّا لَمْ أَسْمَعْهُ فَتَوَدُّ أَعْضَائِي أَنّ لَها أَسْماعًا تَتنعّمُ بِما تَنعّمَتْ بِه الأُذُنانِ" .

الإمامُ الشّافِعِيُّ أَبانَ عَنْ كَيفِيَّةِ الاشْتِهاءِ بِبَيانِ حَالِ أعْضائِهِ حِينَ تَنْعَمُ أُذُنُهُ بِسَماعِ الكَلِمَةِ النُّورِ، فَتَرَى الأَعْضاءُ مَا نَالَتْهُ الأُذُنُ مِن النَّعْمَةِ بِهَذا الاسْتِماعِ، فَتَتَمَنّى تِلْكَ الأَعْضاءُ أَن يَكُونَ لَها مَا كَانَ لِلأُذُنِ مِن الإِصْغاءِ إِلَى تِلْكَ الكَلِمَةِ النُّورِ. وَكَأَنَّ الشَّافِعِيَّ يَهْدِيكَ إِلَى أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ هِيَ قَضاءُ شَهْوَةٍ لِعُضوٍ إِنَّمَا هِيَ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ فِي نِعْمَةِ اسْتِماعِ الكَلِمَةِ النُّورِ الّتِي تُخْرِجُ المُصْغِي إليْها مِن ظُلْمَةِ الجَهْلِ والضَّلالة، ومن فَرَاغِ "الأُمِيّةِ" إِلَى نُورِ العِلْمِ وَالهِدايةِ وإِلى حُضُورِ الفِعْلِ.

لَيْسَ ثَمَّ نِعْمَةٌ تَفِي اشْتِهاءَ الأَعْضاءِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُهُ نِعْمَةُ الإِصْغاءِ إِلَى الكَلِمَةِ النُّور. أَثَرُهَا غَيْرُ مَعْدُودٍ وَغَيْرُ مَحْدُودٍ مِنْ أَنَّهُ عَطَاءٌ يَتَكاثَرُ بِحُسْنِ الإِصْغاءِ والتَّفكُّرِ، فاسْتِطعامُها لا يَسْتَهلِكُها كاسْتِطْعامِ

المَحْسُوساتِ، وَلا يُضْعِفُ فُتُوَّةَ الانْتِشَاءِ بِها كَسائِرِ النّعَمِ، بَلْ كُلّمَا زِدتَّها تَفكُّرًا وَتبَصُّرًا وتَفَقُّهًا وَفَهْمًا زَادَتْك عَطاءً يَعْلُو الَّذِي كُنْتَ فِيهِ قَبْلُ، فَإذَا أَنْتَ الْحالُّ المُرْتَحِلّ إلَى ما فَوْقَهُ ، وَكَأنّهُ يُقَالُ لَكَ : افْقَهْ وَتَرَقَّ، فَإِنَّ مَنْزِلَتك عِنْدَ آخِرِ لَحْظَةٍ تَتَفَقَّهُ فِيهَا ، وَكُلَّما جاهَدتَّ تَفَقُّهًا كُلَّما تَرَقّيْتَ قُرْبًا.

لَيْس لأيِّ نِعْمَةٍ يَتلقّاهَا غَيْرُ السّمْعِ مَا لِهذِه النِّعْمَةِ : نِعْمَةِ الإصْغاءِ إلَى الكَلِمَةِ النّورِ.

هَذِهِ المُقايَسَةُ الَّتِي اتَّخَذَها الشَّافِعِيّ لِيُفْهِمَكَ كَيْفَ يَكونُ اشْتِهاؤُهُ العِلْمَ آيَةٌ فَتِيَّةُ الإعْرابِ عَنْ أنّ نَعيمَ الحَياةِ الدُّنْيا رَأسُهُ فِقْهُ الكَلِمَةِ النُّورِ؛ فَبِهذَا الفِقْهِ يَتَحقَّقُ لِصَاحِبِهِ أَن يَقُومَ فِي فُسْطاطِ العُبُودِيّةِ الصَّفاءِ وَالعِبادِيّةِ النَّقاءِ، وَمَنْ قامَ فِي هَذا الفُسْطاطِ كانَ مِن الَّذِينَ قالَ اللهُ تَعالَى فِيهِمْ فِي حَدِيثِهِ القُدسِيِّ : «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ التي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِى بِهَا ، وَإِنْ سألني لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ استعاذني لأُعِيذَنَّهُ» . (البخاري: الرّقاق).

وتبصّر قوله: " بِالْكَلِمَةِ مِمَّا لَمْ أَسْمَعْهُ " يَهدِيكَ إلَى أنَّ الشّافِعيّ لم يكنْ بحاجةٍ إلى أن يَجْترَّ، كان عَاشِقًا لجدِيدِ الْعِلم. أَوَ لا تَرى أنّ نَعِيمَ الْجنّة غَيْرُ مَكْرُورٍ، إنه لمتجدّدٌ لا يُسْتنسَخ قطُّ، والعِلمُ النّفيعُ الْمُفضِي إلى عَمَلٍ صَالحٍ مُصْلِح هُو جنّة العالِم الرّبَّانِيّ، لا يسْترضي تكرير ما سبق؛ لأنه حاضرٌ فِي فُؤادِه يسْتطعِمُهُ، أَنَّى لَهُ أن يُكرّرَ سَماعُه؟ وَإنَّما يُكرّرُ تَفَقُّهَهُ وَفَهْمُهُ واسْتِطْعامُه .

لا ترتحل إلى العرفانِ بالسّؤال التّالِي وجواب الشّافِعيّ عنه من قبلِ أن تفتّش فِي حالِك وشأنك: أَتَتَنَعّمُ أُذُنُك بِما تَسمَعُ مِن العِلمْ ، فَتَغْتَنِي بِذلِك عَن أنْ تَتَنَعَّمَ بِغيرِهِ مِن فارغِ القَولِ مِن الحِكمةِ؟

إنْ لَم تجدْك كذلك ، فابْحَثنّ عمّا يُعيقُك عَن أن تتنعمَ بالّذي تتنعَمُ بِه آذان الأعيانِ.

৯০০৪৯০০৪

المَرْحَلَةُ التَّالِيَةُ :

وَيَأتِيك السُّؤالُ الثَّانِي: "كَيْفَ حِرْصُكَ عَليْهِ؟"

هَذا السُّؤالُ مَبْنِيٌّ عَلَى الَّذِي قَبْلَهُ ؛ الحِرْصُ عَلَى الشَّيْءِ مَبْنِيّ عَلَى اشْتِهائِهِ ، فَقَد يَشْتِهِي المَرْءُ شَيْئًا، وَيَكْتَفِي مِنْهُ بِالقَلِيلِ، وَلَكِنَّهُ لا يَحْرِصُ عَليه إلا إذا كان اشتهاؤه آخذًا بِهِ ، وآسرَهُ، منْ هنا كانت مرتبة الحِرصِ تعلو مرتبة الاشتهاءِ.

والحِرْصُ إنّما هُو الإبلاغُ فِي الرَّغبةِ فِي الشَّيْءِ، وَقَد جاءَ فِي كتابِ اللهِ تَعالَى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (البقرة:٩٦) ، ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (يوسف / ١٠٣)، ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (النّحل:٣٧)

وَجاءَ فِي بَيانِ النُّبُوّةِ: رَوَى الإمامُ البُخارِيّ فِي كِتابِ "العِلْم" من صَحيحه بسندِه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، مَنْ أَسْعَدُ

النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :« لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِى عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ ».

فَهَذا مِن الحِرْصِ الحَمِيدِ، وَقَد يَكونُ الحِرْصُ ذَمِيمًا كَما جَاء فِي ما روَاهُ الإمام مُسلِمٌ فِي كِتابِ" الزكاةِ" مِنْ صَحِيحِهِ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :« يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ ».

وَهَذا الحِرْصُ الذَّمِيمُ هُوَ الأَكْثَرُ حُضُورًا فِي دُنْيا النّاسِ .

هَذا السّؤالُ (كَيْفَ حِرْصُك عَليْهِ) الضّمِيرُ فِي(عليْهِ) الأظهرُ أنّه راجِعًا إِلَى العِلْمِ أيْ كَيْفَ حُرصُكَ عَلَى العِلْمِ بقرينة تذكير الضّمير " مَدْخول حرفِ الجرّ".

وَقَد يقُولُ قائلٌ أَلا يحتمَلُ أنْ يَكونَ الضّمير راجِعًا إِلَى شَهوةِ العِلم أيْ كَيْفَ حِرْصُكَ عَلَى شَهوةِ العِلمِ، والتَّذكيرُ باعتِبارِ أنَّ "الشّهْوَةَ" مُؤنّثٌ مَجازِيّ ، يَجوزُ تَأنِيثُ الفِعلِ وتذكيره ، فَيُقاسُ الضَّمِيرُ الرّاجِعُ عَلَيْه تَأنِيثًا وَتَذكِيرًا؟

ويُقوِّي هَذَا أَنَّ الحِرْصَ عَلَى الاشْتِهاءِ، أعلَى مَكانَةً ، وَأقوَى فاعليّةً مِن الحِرْصِ علَى العِلمِ نَفسِه، لأنَّ فِي الحِرْصِ عَلَى اشْتِهاءِ العِلْم دَيْمُومَةً وَتَجَدُّدًا تَضْمَنُ البَقاءِ فِي هَذا الفِرْدَوسِ لا يُشْبَعُ مِنْهِ ، فَيَظَلُّ صَاحِبُهُ طالِبًا لَهُ لا يَرْضَى بِما يَكونُ لَه مِنْهُ لِما يَراه مِن الفَوائِدِ وَالعَوَائِدِ الّتِي تَتَحَقّقَ لَهُ مَعَ كُلِّ مَرّة يَحرِصُ فِيها عَلَى أَنْ يَشْتَهِي العِلْمَ بِما لَمْ يَكَنْ قَد عُلِمَ قَبْلُ.

والسُّؤالُ عَن الكَيْفِيَّةِ كَما سَبَقَ مُتَضَمِّنٌ إقْرَارًا بِتَحَقُّقِ المَسْؤُولِ عَنْ كَيْفِيَّتِهِ.

والسُّؤالُ عَن الكَيْفِيَّة سُؤال عن الصِّفة لا عَن الذَّاتِ وتَحقيقُ مَناطِ السُّؤالِ فرِيضةُ عَيْنٍ لِحُسنِ تَحقِيقِ الجَوابِ.

يُجيبُ الشَّافعيُّ جَوابًا أحالَ فيه السَّائلَ عَلَى ما هُو قائمٌ فِي جَمْهَرةِ النَّاسِ، إلاَّ ثلةً قليلةً مِن السَّابقين بالخيراتِ: حُبّ المالِ جَمعًا وَعَدًّا واكتنازًا ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ ﴾ (الفجر: ٢٠).

لَمْ يُحِلْ السّائلَ علَى مَجْهولٍ، أَحَالَهُ علَى أمْرٍ قائمٍ شَيْءٌ مِنْهُ فِي النّفسِ الإنْسانِيّة ، وإنْ تَفاوتَتْ مَقادِيرُه فِي تِلْك النُّفوسِ، وَمَا يُعْلَمُ بِطرِيقِ النَّفْسِ أَسْبَقُ مِن العِلْمِ بِطَرِيقِ العَقْلِ وَأَجْلَى وَأمْكَنُ.

وَقَد رَكِبَ الشَّافِعِيُّ فِي هَذا مَتن الإبانَةِ بالتَّشبيه التمثيليّ لما لهذا الطّريقِ مِن اقتدارٍ عَلَى الإبانةِ والتّقريبِ والتَّقريرِ والتَّمكِينِ فِي النَّفسِ.[1]

هَذا البُعدُ الوَظِيفِيّ لَلتَّشبيهِ عامَّةً وَلِلتَّمثِيليّ خاصَّةً يَجْعَلُ سُلُوكَهُ فِي الإبانَةِ فِي مِثلِ هَذا المَقامِ سُلوكًا حَكيمًا ، فهُو الأقومُ بِتحقِيقِ الطَّلبة بيْنا أَسْلوبُ الاستعارةِ يَتمثَّلُ البُعدُ الوَظِيفيُّ لَهُ فِي الخَلقِ والإبداعِ وإيجادِ ما لَم يكنْ مِمَّا هُوَ مَوجودٌ .

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة تأليف عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليْه محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني- نشر مكتبة الخانجي- الطبعة الأولى عام ١٣١٢هـ، ص:١٢١ فقرة ١١٢.

وَلِذا جَعَلَ الأعْيانُ مِن أوائلِ عُلماءِ البيانِ كَالجاحِظِ، وابنِ المُعتزّ وَعبدِ القاهرِ "الاسْتِعارةَ" رأسَ فُنونِ" البَدِيعِ" فَهُي أُسلُوبُ إبداعٍ فِي الخَلْقِ وَما عَداه مِن أَرْكانِ البَديعِ أُسلوبُ إِبداعٍ فِي تَحسِينِ ما هُوَ قائمٌ فِي النّفوسِ، فَيَتَمَكّنُ مِنْها وَيَتَوَطَّنُ.

وفرقٌ بيْن ما يُبْدِع إيجادًا لِما لَم يكنْ مَوجودًا، وما يُبدِعُ فِي تَحسِينِ ما هُو مَوجودٌ.

مَا أَجابَ بِهِ الشّافِعِيّ أَقامَهُ عَلَى ما قُلْتُ لَكَ عَلَى نَهْجِ "التَّشبيهِ التَّمْثِيليّ" الَذِي اسْتَغنَي فِيهِ عَن ذِكْرِ الْمُشَبّه بِذِكْرِهِ فِي السّؤالِ، فقولُه ﷺ: "حِرْصُ الْجَموعِ المَنوعِ فِي بُلُوغِ لَذَّتِهِ لِلْمالِ" أي حرْصِي عَلَى العِلْمِ كحِرْص الْجَموعِ المَنُوعِ فِي بُلُوغِ لَذَّتِهِ لِلْمالِ.

مَناطُ المُشابهةِ مِقدَارُ الفِعلِ، وبواعِثُهِ وأثرُه.

والعِرفانُ بِهذِهِ المَناطاتِ فِي شَأن الجَموعِ المَنوعُ قائمة بين بصَرك وفِي بَصِيرتِك، لا تحتاج إلَى مَن يَهدِيكَ إِلَيْهِ. فانْظُر شَأنَ حِرْصِ الشّافِعيّ عَلَى الْعِلْمِ ... فِي مِرآةِ عِرفَانِك بِشأنِ حِرصِ الجمُوعِ المَنُوعِ عَلى المَالِ.

وَلا يَبْعُدَنّ عَنْ وَعْيِكَ الْمفارَقةُ الَّتِي بَيْن مَا حُرِصَ عليه عِنْدَ كلٍّ.

هِي الْمفارقَةُ بيْن الخَيرِ المُفضِي إِلَى العِزّةِ فِي الدُّنيًا، والسّعادَةِ فِي الآخرة، والشَّرِ المُفضِي إِلَى التّعاسة في الدّنيا ، والشقاءِ في الآخرة.

رَوَى البُخاريّ فِي كِتابِ" الجهادِ" مِنْ صَحيحِهِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :« تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِىَ رَضِىَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ ... ».

بالغ النفع أن تستبصِر إعرابَ الشَافِعيّ عَن المُشبّه بِهِ بقَولِه :"حِرْصُ الْجَمُوعِ المَنُوعِ فِي بُلُوغِ لَذَّتِهِ لِلْمالِ".

تَبصّر قولَه :" الجَمُوعُ المنوع" دُون قولِنا :" الجامع المانعِ".

اصطفي صيغة المبالغة" فَعُول" وَمَا فِي هذِه "الواو" الحامِل صَوتُها قوَّةً يُصَوّر بها قوَّةَ تَحقيقِ الصِّفةِ فِي المَوصُوف، ففرقٌ بين "فَعِيل" وفَعُول" : في " الكَسْرَةِ" وَ"الياءِ" : شَيْءٌ مِن الرِّقَّةِ، وفي "الضّمةِ" وَ"الواو" شَيْءٌ مِن القوَّةِ، وَتَرَى فرقًا بيْن قولنا :" هذا فَهِيمٌ ، وذاك فَهُومٌ"، فِي "فَهيم" يُسْرُ الفَهْمِ وقُرْبُ تَحققِهِ ، وفي" فَهُوم" قوةُ الفَهمِ وتمكُّنُه ، والعرب تقول: فلانٌ رَ حيمٌ ،ورَحُومٌ؛ تفريقًا بيْن حالِ الصّفةِ في كلٍّ.

وَهَذا يُبين لك ما فِي صِيغَة" فَعول":" جَمُوع مَنوع" مِنْ دَلالةٍ علَى قُوّة الصّفَتَين فِيهِ المُبينة عَن قوّةِ حرصِهِ عَلَى هَذيْن: الجَمْعِ وَالمَنْعِ، وفِي الْقَرْنِ بيْن النّعتَيْنْ بغيرِ عاطِفٍ إعلامٌ بأنَّ كُلا مستلزمٌ الآخَر، فَتَمكّن النَّعْتِ الأَوَّل فِيهِ اسْتلْزمَ تَحَقّقَ الثَّانِي ، فالإبلاغُ فِي جَمْعِ المالِ مُفضٍ إلَى الإبلاغِ فِي مَنْعِ إنفاقِهِ فِي مَا يَجِبُ إنفاقُهُ فِيهِ .

فِي إخلاءِ تَوارُدِ صِفاتِ غَيرِ اللهِ بِغَير عَطفٍ آيةٌ عَلَى اجتماعِها فِيهِ عَلَى دَرَجَةٍ سَواء، وَفِي إيرادِها مُتعاطِفةً آيةٌ عَلَى كَمالِ كُلٍّ فِي المَوْصُوفِ، فَإذا قُلْتَ: "مُحَمّدٌ شُجاعٌ كَرِيمٌ" غَيرُه "مُحمّدٌ شُجاعٌ وكَرِيمٌ":

فِي الأَوَّل إعلامٌ بِاجْتِماعِ الوَصْفَيْنِ فِيهِ، فَهُوَ كَرِيمٌ فِي شَجَاعَتِه، وَشُجاعٌ فِي كَرَمِهِ.

وَفِي الثَّانِي إعلامٌ بكمالِ كلِّ صِفةٍ فيه، فَهُوَ كَمِيلٌ فِي شَجاعَته، وكَميلٌ في كَرَمِهِ.

وهذا يُعِينُك عَلَى أَنْ تُبْصِر قُوَّةَ حِرْصِ الشَّافِعِيّ عَلَى العِلْمِ.

وفي قوله :" فِي بُلُوغِ لَذَّتِهِ لِلْمالِ" يومِئ إلى مقابله عنده " بلوغُ لذّتِه للعلمِ " جَعَلَ لِلعِلمِ عنده لَذَّةً كَلَذّةِ جَمْعِ المالِ ومَنْعِ إنفاقِه واكْتِنازِهِ ، وَهْي لَذّةٌ يَكادُ يَكونُ الْعلْمُ بِها لا يجهَلُها كثِيرٌ مِن النّاسِ ، فقد أضْحَى ذلِك الْعِلم من العِلم الضَّروريّ من كثرة حضُوره ، فقَليلٌ أولئك الّذين لم يذوقوا لذّة جمعِ المالِ ومنْعِه ، فَمن لَم يُصِبْ منْه أَصَابَ مِنْ غُبَارِهِ ، ولسان حالِ أبناء العصر ولا سِيما طلابُ الجامعات ينبِئُ بأنَّ قليلاً مِنهم مَن يذوقُ لذّة العِلمِ .

الشّافِعيُّ إِذْ يُجيبُ بقوله: (حِرْصُ الْجَموعِ المَنوعِ فِي بُلُوغِ لَذَّتِهِ لِلْمالِ) يُقيمُ في بصيرتِك أمرين متناقضَيْن؛ لِتصْطَفِي الّذِي هُو المَجيدُ الحَميدُ مِنهما.

الأوَّلُ يُمثِّلُ الفِطرَةَ "الآدَمِيّة " الصَّفاء الّتِي لا ترَى فَوقَ العِلْمِ المُفضِي إلَى كَمالِ العُبودِيَّةِ نِعْمَةً أُخْرَى فَهُو مِفتاحُ الإيمانِ المَكينِ، وَالسَّبيلُ إلَى التَّرقّي فِي مقَاماتِ القُربِ الأقْدَسِ.

وَالآخَرُ يُمَثِّلُ الفِطْرَةَ الإنْسانِيّةَ الآنِسَةَ بالتَّلَذّذِ بالنِّعْمَةِ النَّاسِيَةِ حَقّ المُنعِمِ بِها سبحانَه وَبِحَمْدِهِ.

كانَ هَذا مِنه ﵁ جَمْعًا بيْن شأنِ ما هُوَ آدَميّ مُحمَّدٌ، وشَانِ ما هُوَ إنسانيٌّ مُذَمَّمٌ.

هذِه المُناظَرة تُقيمُك بيْنَ طَريقَين قِيامًا يَحمِل كلَّ عاقلٍ علَى أن يَسلُك الَّذِي هو الأعلى: ﴿ وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (البلد: ١٠-١٣).

هَذا سَبيلٌ في الإقناعِ النّفسيّ الّذي يَعلو الإقناعَ العقليَّ، فَكَمْ مِن مُقتنِعٍ عَقلُه بِما سَمِعَ لا يُحرِّك ساكِنًا، كَما تَراهُ مِن كثيرٍ مِن عُصاةِ المُسلِمين هُم مَلِيكُو اقتِناعٍ عَقلِيٍّ بِما أَمَرَ اللهُ ﷻ وَنَهَى، وَلَكِنَّهم لا يَملِكونَ اقتناعًا نفسيًّا يُفضِي إلى إقبالٍ وتزلّفٍ.

ꕥ

المَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ:

ولمّا تبين للسَّائلِ كيفيةُ حرصِه علَى العِلم ترقّى إلى التَّساؤلِ عَنْ كَيفِيّةِ طَلَبِهِ لَه، قالَ: فَكيفَ بطَلَبكَ لَه؟

كلُّ الّذِي مَضَى تَساؤلٌ فِيما هُو قائمٌ فِي العالَم "الجُوَّانِيّ" للشَّافِعِيِّ، كَيْفِيّة الاشْتِهاءِ، وَكَيْفِيّةِ الحِرصِ عَلَى العِلْمِ لِيَنْتَقِلَ التَّساؤلُ إلَى بابٍ آخرَ: العِلْمِ السُّلُوكِيِّ: عِلْم الطَّلَبِ الفِعْلِي لِلْعِلْم.

هُنا تَجِدُ الشّافِعِيّ يَقِيسُ فِعْلَهُ بِما هُو أَكثرُ تَصوّرًا وَحُضورًا فِي وَعْيِ السَّائِلِ.

لَن تَجِدَ أحدًا مَهمومًا بطلبِ شَيْءٍ طلبًا يَبْذُلُ لِتحقيقِه كلَّ ما فِي مُلكِه كمثلِ الّتِي فَقدَت وَحيدَها فَإذا هِي تطلُبُه غيرَ بَصيرةٍ بمحلّه لا يشغلُها شَأنٌ أوْ حالٌ مِنها غيرَ أنْ تجدَه، فإنْ وَجدتْه فقَد وَجدتْ نفسَها، وإلاّ فَما فَقَدتْ وَحيدًا فقَدَتْ نَفسَها، فَقَدَتْ وُجُودَها.

يقولُ الشَّافِعيُّ مُجِيبًا: "طلَبُ المرأة المُضِلة لِولدِها ليْسَ لَها غَيْرُهُ"

أي طلبي للعلْمِ كَطلَبِ المَرْأةِ المُضِلّةِ لِولدِها ليْسَ لَها غَيْرُهُ

يُصوُّرُ لَكَ بِهذا التَّشبِيهِ التَّمثِيليّ شَأنَه فِي ذَلِك الطّلب ، فما عليْك إِذَا لَم يَتيسّر لَك تصوّر هَذا الطَّلبِ المَعنويّ لدَى الشّافِعِيِّ إلاّ أنْ تَرْقُبَ شَأنَ امْرأةٍ فَقَدَتْ وَحِيدِها ، فَهِيَ تَطْلُبُهُ لا تَلْوِي عَلَى غَيرِ ذَلِكَ.

هُنا يَحسُنُ أنْ تَنظُرَ فِي هَذِه القُيودِ الّتي جَعَلَها الشّافِعِيّ فِي صُورَةِ المُشَبّه بِهِ "المَرَأةِ المُضِلّةِ" "وَلَدها" "ليْس لَها غيرُه" كلُّ عنصرٍ مِن صُورة المشبّه بِه يُبِينُ لَك شأنَ هَذا الطَّلَبِ، وَكَمْ هُوَ آخِذٌ بِها، فَرْقٌ بيْن طَلَبِ رَجلٍ ولدَه، وفرقٌ بيْن طلبِ غيرِ الوَلَد، وفرقٌ بيْن طلبِ وحيدٍ وطلبِ غيره.

هذِه فِي بناءِ صُورة المشَبّه بِه عناصِرُ رَئيسَة في بناءِ المعنى، مُبنيّة علَى عنصرٍ هُو جذر المَعنى(طلب)، وكلُّ عُنصُر مِنها هُو عُنصر فاعلٌ إذا ما غابَ غابَ المعنى البياني المقصُود ، بلْ إذا تحرك منْ مَوقِعِهِ فِي بنيَةِ الْمُشَبّه بِه تغيّرَ الْمَعْنَى ، كما ترَاه فِي الفرقِ بيْن قَولِك: إنَّ مُحَمّدًا كالأسدِ ، وقولِك : كَأَنّ مُحمّدًا أَسَدٌ ، هُما لِيسا سواءً فِي المَعنَى البيانيّ، وإنْ كانَ الغرضُ واحدًا: تَشبيه مُحمّدٍ بالأسد .[1]

عبارةُ الشَّافِعِيّ تَهدِيك إِلَى أنَّ كلّ شَيْءٍ عِندَهُ طَلَبُهُ مِنْ دُونِ طَلَبِهِ العِلْمَ، هُوَ مَشغَلَةُ نَفْسٍ وَرِسالَةُ حَياةٍ، وَما ذَلِك لِذاتِ العِلْم، فَلَيْسَ العِلْمُ يُطلَبُ لِذاتِه، بلْ لَيْس فِي الإسلامِ مَا يُطلَبُ لِذاتِه إلاّ مَرضَاة الله ﷻ

(١) دلائل الإعجاز تأليف عبد القاهر الجرجاني(ت:٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليْه محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني- مكتبة الجانجي- ص: ٢٥٨ فقرة : ٣٠٠.

بِحُسنِ عبادتِه وطاعتِه، أَمَّا أَن يَكونَ العِلمُ عَلَى شَرَفِهِ للعلم ذَاتِهِ ، فأَمْرٌ لا يَرضاه العقلُ المُسلِم ، إنّما العلْم للعملِ.

ومِن دَقيقِ هَذا الّلسانِ العَربيّ أَنْ جَعَل اسْمَ كلّ مِن الفِعلَين مِنْ حروفٍ واحدةٍ: (ع.ل.م) علَى اختِلافٍ فِي التَّرتِيبِ ، وفِي هذا إعلامٌ بما بيْن الفعليْن من تلازم، ولست بواجدٍ مثلَ هَذا فِي أيّ لِسانٍ غيرِ الّلسانِ العَربيّ يَجعلُ الاسْميْن الدَّالَيْن عَلَى هَذيْن الفِعليْن مِن حروفٍ واحدةٍ ، ممَّا يهديك إلى عُقم علمٍ لا يترتّبُ عليْه عملٌ صَالح مُصْلِحٌ، وإلى بُطلان عملٍ لم يُؤسَّس علَى عِلْمٍ صَحيحٍ صَريح، ولذا اسْتعاذ سيّدنا رسُول الله -صلّى اللهُ عَليْهِ وعَلَى آلِه وصَحبِه وسلّم- من علمٍ لا ينفع مِمَّا يَهدِي إِلَى فُحولة ضُرّ العلمِ الّذي لا يَنفَع ، وَمنْهُ الْعِلمُ الّذي لا يُعملُ بِه، وقد أُعربَ عَمّن يَعلَم الحقّ والخَير، ولا يَعملُ به بالمغضُوبِ عَليْه، ومَنْ عَمل على غَيْرِ عِلم صَحيحٍ صريحٍ بالضَّالين، أمَّا مَن عَلِمَ الحَقَّ والخَيرَ وعملَ بهما احتسَابًا فَهُو عَلى صِراطٍ مسْتقيم، كما جاء فِي خاتم سورةِ "أم الكتاب".

والشّافعيّ في رؤيَتِه القِيمَة الحقِيقيّة الْعُليا لطلبِ العلم منْ حسنِ فقههِ لقَولِ الله سبحانَه وَبِحَمْدِهِ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (التوبة:١٢٢)

حُسن التّبصُّر المُتدَبِّر نظمَ هذِه الآيةِ فِي سياقها يُقِيمُ فِي فؤادِ المَرءِ عَزيمةً فتِيَّةً عَلَى المُجاهَدَةِ فِي طَلَبِ العِلْمِ النَّفِيع لِيكُونَ زادًا إلى تحقيق العمل الصَّالح الْمصْلِحِ المتزلّفِ بِه إلَى اللهِ سبحانَه وَبِحَمْدِهِ.

روَى أَبُو داود في كتاب "الْعِلْمِ" مِنْ سُنَنِه بسَنَدِهِ عَنْ أَبِي الدّردَاء أنّه سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :

❖ «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ.

❖ وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ.

❖ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ في السَّمَوَاتِ وَمَنْ في الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ في جَوْفِ الْمَاءِ.

❖ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ.

❖ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».

إنَّ كلّ فقرةٍ منْ فقرِ هذا النّبإِ النَّبويّ الجليلِ يفيضُ مِنْ تبصّره مَا يُثَوّرُ العَزائمَ إِلَى الْمُجاهدةِ فِي طلبِ العِلمِ النّافعِ.

وَمِمَّا يُعينُ أيضًا علَى تَثوير شهوة طالبِ العلم النبيلةِ فِي زماننا، وقد أحاطتْ بِه زخارفُ الدّنيا وأَفَاعيل متْرفِيها أَنْ يُخادن الأسْفارَ الْمنبئةَ بِسنّةِ الأعيان مِن أئمةِ أهلِ العلم في طلبِ العلمِ والعملِ به ، ولا سِيّما الإمام الشّافِعِيّ ، فقد أنبأت أسفارٌ عديدةٌ بكثيرٍ مِنْ جِهادِهِ فِي طلبِ العلم وخدمته تحقيقًا وتحريرًا وتقريبًا ونشرًا في النَّاسِ ممَّا بلغَ بِه

أنّه قال :" ما ناظَرتُ أحدًا ، فأحببتُ أنْ يُخطِئَ ، وما فِي قلبِي مِن العلمِ إلا وَدَدتُ أنّه عِند كلّ أحدٍ ، ولا يُنسبُ إليّ "(١).

هَلْ لِي وَلَكَ أَنْ نتسَامَى إِلَى هذا الْخلقِ النَّبيلِ، وأن نتطَهّرَ مِنْ حضُورِ أنفسِنا فِي أقوالِنا وأفعالِنا وأحوالنا ظاهرها وباطِنها، فلا يبقَى إلاّ استشرافُ مرضَاة الله سبحانَه وَبِحَمْدِهِ فِي كلِّ ما نأتِي وَنَذَرُ.

واللهُ الهادِي إِلَى سَواءِ السَّبِيل والمُسْتَجدَى رُضوانُه.

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ

وَكَتَبَهُ

مَحمُود توفيق محمّد سَعد

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه لأبي حاتم الرازي ص١٨، ومناقب الشافعيّ لأبي بكر البيهقيّ ج:١/ ١٧٣ .